

غرفة ضيقة بلا جدران



السيد نجم



© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لـ
www.nashiri.net
© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب
نشر إلكترونيا في ديسمبر 2004

المحتويات

- معذرة يا سيد الألم
- معذرة يا سيد الحرب
- معذرة يا سيد الاحتمالات
- معذرة يا سيد السقوط
- معذرة يا سيد اللذة
- معذرة يا سيد الطعام
- معذرة يا سيد الليل
- معذرة يا سيد البشرى
- السيرة الذاتية للكاتب السيد نجم

معذرة يا سيد الألم

هبت الريح المنحدرة من نشيد الألم, ولأنه لم يتاجر فى بنات الهوى ولا يعرف سوى الكتب القديمة.. تلبسته الدهشة.
الدهشة .. أوقعته فى عتمة المجهول, وفى العتمة توصد أبواب البكاء , وتفتح مزاليج الدرب المحتوم .

... ...

أصبح جسده أكثر خفة, ليس بسبب أن فقد خمسة كيلوجرامات من وزنه خلال اثنا عشر يوما, ولا بسبب ذاك الألم الذى نهش أمعائه فجأة.
شعر وكأن خرطوم نقل المحاليل المثبت فى ذراعه اليمنى أو اليسرى, مع خرطوم "الرايل" الملعون الذى رشق إحدى فتحتى أنفه الى البلعوم ثم المريء فالمعدة .. معا يحملانه ما بين السماء والأرض.
وان بدا للرائى الذى يجهل ما يشعر به من خفه, أنه مثبتا على سريره .

... ...

"إن شاء اللّه خيرا..لا تحزن, اطمئن"
قالها الممرض المؤهل بشهادة دراسية معتمدة وبعشر سنين من العمل فى المستشفى الخاص, بدا وكأنه يزف البشرى, وهو يدرك خطورة سقوط خرطوم "الرايل" قبل إتمام دوره.لم تنحصر مهمة خرطوم (الرايل) على نقل إفرازات معدته الغامضة الى كيس خارجي, هونت عليه أعراض القيء المستمر والفواق المزعج الذي ألمت به بسبب شلل أمعائه المفاجئ, حتى أن الطبيب المعالج حذره قائلا: "إنها حياة أو موت .. لو فشلت فى إدخال الخرطوم من أنفك سوف تموت خلال ساعات معدودة" قالها مع اللحظات الأولى لدخوله المستشفى !
شعرت الزوجة بالقلق, لم تطمئن كما طلب الممرض منها ومن زوجها. تمنى لو تشعر بالسعادة التي غمرته لتخلصه من ذاك الخرطوم!!. لم تترك للأماني فرصة لأن تزدهر, أسرعت الى رئيسة التمريض بالدور التاسع من مستشفى القاهرة التخصصي. عادت فورا, أخبرت زوجها:"محمود الممرض أخبر الجميع, ووصل الخبر كما البرق إلى الاستشاري الكبير المعالج"!

... ...

طلب من زوجته أن تقرأ له من الجريدة, وأن تضئ شاشة التلفاز , لعله ينشغل عن ألمه الذي لم يبرحه بعد, وان خفت وطأته قليلا .

..هروب متعهد حفلات "أوبرا عايدة" دون سداد مستحقات الفنانين, المتعهد حمل معه مليونين ونصف المليون جنيه .

.."ليندا فرانكلين", سبع وأربعون سنة, تعمل فى مكتب التحقيق الفيدرالى.. كانت تتسوق من المحل التجارى فى إحدى ضواحى واشنطون , وأصبحت الضحية التاسعة لقناص مجهول أزعج العاصمة الأمريكية.

..يقول "بوش" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن الاعتداءات الإرهابية فى الكويت واليمن وإندونيسيا مخطط واحد.

كان يتمنى أن يقتنص أحلامه الطائرة هناك, لم يتابع اللعبة . يتجدد الألم الذى حير الطبيب الكبير , وطلب عمل أشعة مقطعية على البطن فورا.

... ...

اختلق المريض سماء تخصه وحده, خط شريعته, واعتنق الحكمة التى ما كان يعرف شيئا عنها.

"الاعتياد" يفقد الرأس ملكة التفكير والتفكر, وفى الألم والعجز محطة لتجاوز اعتيادية الأيام والليالى والأشياء.وأن فى تناول "الطعام" نعمة لا يدركها أصحاب عادة تناوله ثلاث مرات يوميا , وربما أكثر.

تجاوز الرجل ما دار برأسه , سأل زوجته التي ما أن سمعته ظلت تضحك طويلا على الرغم من حزنها الدفين على جسده المعلق بالخراطيم . قهقهت وهو مازال يلح جادا يقول: "أريد أن آكل طبق "بصارة"!!

حاول إقناعها, لعلها تتعاطف مع رغبته تلك:" هل تعلمين ماذا أرى منذ صباح يومنا العاشر هذا فى تلك المستشفى؟" ..لم ينتظر إجابة :"رأيت طبقا معبأ بالبصارة يغازلنى فى سقف الحجرة..أنفى تشم رائحة التقلية والنعناع!!"

يالها من وجبة سخية وشهية , تلك "البصارة" التى لم يتناولها منذ خمس عشرة سنة, منذ أن تزوج التى مازالت تضحك .

... ...

خال نفسه مع "البصارة" يصطاد فاكهة محرمة سوف تنزعه من جسده المقيد الى سماء أحلامه الغامضة!

تناول اللهفة نحو يوم آخر, يتمنى لو يعانق الغد وبعد الغد. لكن العصافير بلا أجنحة , وأحشائه التي قفزت من خلف جدران بطنه تعلقت بالسنة النار .

... ...

لم تكن تلك الورود المقيدة فى غلالة من الورق السيلوفان تشعره بالبهجة أو الأمل. لمحها تذبل يوما بعد يوم. وعندما قررت زوجته تسليمها الى عاملة النظافة..تجاوز كل ألم. علا صوته ونهرها: "لن يحدث, دعيها تذبل ولا ترميها فى سلة المهملات."

صبرت الزوجة حتى انتهى من كلماته المنقوصه, وقد نطقها ممزقة. ثم قالت: "لن القى بالباقة غالية الثمن تلك..". كان يعلم أنها تتكلم عن تلك الورود الصناعية التى بلا رائحة, و لم تذبل .

لم يجد فى نفسه القدرة على المناكفة , لكنه حاول دون أن ينطق بكلمة واحدة, تابع محاولته الخاصة جدا فى اقتناص أحلامه من جديد ..وحده .

... ...

تعقب الرجل المريض سبل المقاومة .. وان بدا مستسلما للشكشكات والخراطيم المعلق بها. ممدد الذراعين , يبدو الرأس بمستوى الجسد , ومع ذلك لا يشغل من مساحة السرير إلا القليل, ظن أنه تأقزم أكثر من اللازم.

تظن جماعات الزوار المتراصة بين جوانب الحجرة التى ضاقت بهم, وكأنه ليس متابعا لثرثرتهم . إلا أنه بقى متابعا ملهوفا , وبقى مشاركا وان لم ينبس ببنت شفه.

الخبيث عقد عقدا مع قوى غامضة وصادقته, قال لها: افتحى الأبواب أيتها الريح الشديدة, افتحى النوافذ أيتها العصافير العنيدة, افتحى الأرحام أيتها المولدات الماهرات, افتحى النار أيتها الحرب المقدسة .

معذرة يا سيد الحرب

كل صباح جديد,مع بداية مرضه, كان يبحث عن يوم آخر, وعن غرفة بلا أبواب ولا نوافذ..بلا سقف. يحلم لو يسير فوق طريق أخرى غير التى وجد جسده عليها.
تمنى لو يعتنق دربا يجهل الألم, فيه يسمع أصداء صوت خطواته عاليا,وأنفاسه رتيبة مستقرة, مع صوت فكيه ولسانه يلوك جرعة ماء.. الماء الذى لم يتذوقه منذ بداية الوعكة.
آه .. يا لمذاق الماء, نعم للماء مذاق, قالها ونظر الى زائريه. بعد صمت قالوا : نعم.. نعم, للماء لون وطعم ورائحة!

... ...

خلال زيارته الأولى, اكتفى الطبيب المعالج بنظرته الباردة غير المبالية, لتؤكد ما صرح به لسانه: "سوف نفتح بطنك بنسبة سبعين فى المائة, لعلنا نعرف سر شلل أمعائك ومعدتك, سر الانسداد المعوى الذى تشكو منه."
لما تعلقت عينا المسجى فى صمت بشفتي الرجل اكثرٍ,سأله إن كان قد أجرى عملية جراحية منذ فترة قريبة , فأومأ المريض, ووجد الطبيب ما يقوله: "أخشى ما أخشاه أن يعود الالتصاق ثانية وبسبب الجراحة الجديدة!!" , فالتقط الهامد على سريره ومضة جب لا يعرفه ويخشاه .لم يشأ أن يبوح بما راوده.

... ...

إلا أن يموت وحيدا, ذاك الذى يأتى من جهات شتى.. تحت رذاذ المطر وصفير البرد ووهج الشمس..وفوق سرير العجز.
يوم ارتدى "بيادة" المجند مع زملاء كليته فى زمن الحرب الأخيرة بعد معارك 67, لم تطارده خفافيش الجب اللئيمة ليلا, ولا أشواك الصبار .
تذكر أيام تجنيدهم الأولى, كانوا يمزحون بالموت وعليه, فنشروا نعى "محروس", زميلهم (الراقد بينهم) فى الجريدة الصباحية! لم يهاب أحدهم الجب, وضحكوا لليلة كاملة حتى وهم داخل محبسهم فى سجن الوحدة, عقابا لهم وتنفيذا لأوامر قائد مركز تدريب الخدمات الطبية, وقد شاركهم الضحك فيما بعد قائلا: "تمزحون بالموت..الموت!!".

... ...

احتواه الأرق وشغل نفسه بالأسئلة لساعات طويلة. سأل أمعاءه العاجزة أن تلين, وربه أن يستجيب لدعاء الداعين , تلك الأدعية التى التقطها بأذنيه من بعضهم فور رؤيتهم له مسجيا فى هدؤ, والتقطها بعينيه فى نظرات زوجته التى رافقته الغرفة.
لولا تلك البحوث المتتالية الكثيرة.. من أشعة مقطعية, ومنظار قولون, وأشعة تقليدية , لولاها لأعتقد أن الهلاك أقرب مما يتوقع. كلما بدا فحصا جديدا عاوده الأمل.
شعر وكأنه يحارب الآتي , وخلف عتبة الغرفة تنام جنوده البائسة...

... ...

ما كان يعرف عن جنوده إلا المشاكسة, غير مبالين . صوت انفجار هنا, وأزيز طائرة هناك, ودوى مدفع بعيد, وآهات لا تنقطع فى العنبر الذى يقوم على تمريض رواده بالمستشفى الميدانى العسكرى فى زمن الحرب..عند الكيلو 105 طريق القاهرة-السويس.
مع بداية المعارك صام الجنود والأطباء, المصابون والمعالجون.. بغية ملاقاة ربهم تائبين , و فى فترة تالية وقد حاصرتهم القوات الإسرائيلية بعد ثغرة "الدفرسوار", و نجحت فى الوصول الى طريق السويس الإسفلتي.
كان فى البداية يتفاخر بقدرته على الصوم وأنه يعف الطعام والشراب.. غير مجهد مع مشقة العمل ليل نهار, ومع آهات المصابين على أرض المعركة شرق قناة السويس بعد عبور القناة.
فى ذاك اليوم البعيد, اليوم الخامس عشر من بداية المعارك انتابته وخزه فى أمعائه للمرة الأولى ولم يكن يستشعرها من قبل. يوم أن صدمه مشهد علمهم أمام حدود وحدته عندما لمح الخطين الزرقاوين يحتضنا نجمة داود السداسية. تذكر شعارهم: من النيل الى الفرات!!
فى تلك الأيام البعيدة لم يشعر بالحصار , غرفته موصدة الأبواب والنوافذ هى الحصار...

... ...

راح المريض ينظر فيما حوله جاحظ العينين, لم تستطع زوجته الرد على سؤاله: هل لم يعد أمل فى شفائى..؟ انقضت خمسة أيام بلا طعام ولا شراب , مرشوقا فى سريرى, معلقا فى كيس جمع إفرازات المعدة, وزجاجات المحاليل؟!
على غير توقع نظر بطرف عينيه نحوها ..زوجته صامتة على غير المعتاد , فشعر بالندم. يبدو انه عبء تنوء عن حمله , يعرف عنها قدرتها الفائقة على مداراة مشاعرها الى غير حقيقتها. يعلو صوتها بالضحك مرة, وبالصراخ فى وجه الممرضات مرة.. ودائما تبدو قوية أكثر من اللازم!

... ...

انقطعت صلة جماعة الرقباء الطبيين فى المستشفى الميدانى ليوميين متتالين منذ بدء المعركة.وهب الجميع نفسه لدشمته , يقوم بالعمل على رأس مجموعة المرضين الجنود.

ولما كان المصابون قلة, والعزلة مره , ملوا محبسهم الاختيارى. مع اليوم الثالث لبوا نداء زميلهم "بطرس" الذى شق هدؤ المغربية , وصاح وسط الدشم قائلا:"ميعاد الرضعة يا جماعة!!". خرجوا إليه , دخلوا دشمته, تناولوا ما أعده من طعام . أكل معهم وقد صام يومه عفوا أو جبرا, فقط حقق رغبته منذ أن التقوا للمرة الأولى بمركز تدريب الخدمات الطبية منذ سنوات ..أن تأكل مجموعة الرقباء الطبيين معا, حتى أيام الحرب!

... ...

حديث المسجى على سريره لزوجته الصامتة عن مذاق الطعام وحلاوته فى زمن الحرب, وهب هواء الغرفة نسمة ندية, معبأ بكل روائح الأطعمة المحرمة عليه, فأصبح الجو منعشا, وإلا لماذا علا صوته, وبدت بشرته هكذا مشرقة؟!

... ...

.. وافقت السلطات المركزية بدعم الحكومة الفيدرالية وامدادها بكل الإمكانات المناسبة للقبض على السفاح الغامض فى واشنطون .

.. ‘‘بوش" رئيس الولايات المتحدة فى تصريح له: سوف نسقط النظام الحاكم فى العراق وعلى رأسه صدام حسين.. إن لم يوافق على عودة المفتشين الدوليين, وان وافق.

.. أحدهم أعلن أن متعهد حفلات أوبرا عايدة لم يهرب, بدليل أنه ترك مدير أعماله فى القاهرة, كما أعلن أن مدير الأوبرا سدد كل مستحقات الفنانين من خزينة الأوبرا.

تعثر ذهنه, لم يجد تفسيرا للألم الذى لم يبرحه على كل محاولات الطبيب الكبير. آخرها قالها صريحة: سوف انتهى من عمل منظار القولون, وهو الذى سيوضح الأمر كله بعد أخذ عينات لفحصها باثولوجيا."

أضاف مبتسما بعدها : "وسوف نجدد الجزء الذى سنقطعه فى العملية الجراحية..إن كان قصيرا أو طويلا!!"

عرف أنهم يبحثون عن ورم خبيث فى أحشائه, فقال فى نفسه: "مازالت التفاصيل بعيدة .. مازالت الحرب مستمرة"

معذرة يا سيد الاحتمالات

شعوره بأنه كائن على طريق الانقراض , جعله يبدو وكأنه منتبها عنوة وشاردا فيما يسمع ويرى, عنوة أيضا ومدفوعا الى عالم الاحتمالات .

أخبره الطبيب هذا الصباح: "الانسداد المعوي له أسبابه..ربما التوت الأمعاء, أو إندغمت فى بعضها البعض, ولعلها سدت بسبب ورم نجهل حجمه وأسراره. واحد منها وراء ما تشكو منه, ولا أستطيع أن أحدد الآن" . ولأنه لا يجزم بشىء ولا ينفى, اكتفى بمتابعة أحاله ,أمر بتجهيز مريضه لعمل أشعة "بالباريوم" على القولون.

... ...

بدا وكأنه قرر أن يفرض نفسه على هذا العالم, فتشاجر مع الممرض النوبتجى ليلا, والمتكفل بمتابعة تعليق زجاجات "الجلوكوز" و"كلوريد البوتاسيوم" و"رينجر"..الواحدة تلو الأخرى.

منذ وخزه الإبرة الأولى ,اعترف الجميع أن مريضهم حالة خاصة لا ينجح معها سوى الممرض "على". عروقه اختفت , يظن من يبحث عنها أنها هربت منه , وان كانت حالة شائعة مع بعض المرضى إلا أنه كان أكثرهم إزعاجا.

نقلوا "الكانيولا" تلك الأنبوبة البلاستيكية المثبتة بإبرة مناسبة, ليتصل بها خرطوم عبوة المحاليل , نقلوها أكثر من عشر مرات من موقع الى آخر على امتداد الذراعين والكفين. وان بدت ذراعيه متورمتين ..زرقاوتين..لم يفلح دهان "الهيموكلار" شائع الاستخدام لعلاجها.

سب المريض ‘‘عليا", اتهمه بأنه وراء آلام الذراعين المتورمتين, لا هو ماهر ولا يجيد شيئا فى مهنة التمريض !!

كان الممرض الشاب أكثر ذكاء..لم يعقب!!

... ...

بينما انتهى فنى الأشعة البدين القصير اللئيم من التجهيز السريع لإجراء "أشعة بالباريوم على القولون",توجس المريض خيفة من شرده الرجل الذى يبدو وكأنه يخلو من أى شئ تحت الجمجمة..يتحرك فى آلية غريبة, لا ينطق, ولا ينظر الى مريضه, ولا حتى الى الأشياء والأجهزة من حوله. تابع الإجراءات برشق ذاك المبسم الطويل فى مؤخرة

المتوجس خيفة والمرتعد بسبب الوهم الذي تلبسه أو بسبب برودة منضدة جهاز الأشعة المعدنية .

ليبقى المبسم داخله حتى انتهى فنى جهاز الأشعة من تفريغ كل محتوى العبوة . سأله إن كانت الكمية لترا , أجاب الرجل بل أكثر من لترين: "وان شعرت بالضيق أو الألم الزائد أخبرنى".

حتى وان شعر بالألم , لن يخبره, لن يضع العراقيل أمام قراره الخاص جدا:" لن أدع لهم فرصة واحدة لاغتيالى.. سوف أنفى كل معالم عالم الاحتمالات الذى فرض على فرضا".

كان علي فنى الأشعة أن يلتقط له عددا من الصور قبل تفريغ "الباريوم" من بطنه..فى دعة وسكون كان ينفذ الأوامر ويلبى طلب السيدة "هند" رئيسة التمريض التى تبدو أكثر الوجوه انفعالا من حوله. كانت كل الوجوه فى مركز التصوير بالأشعة, والكائن ببدروم المستشفى محايدة ولتكن بليدة, إلا إياها مفرطة النشاط والحركة والكلام والنظرات المحدقة عن غير داع.. السيدة هند والسيد الوقور أيضا.. ذاك الطبيب الذى التقطه منذ أول مرة.

فيما تركه الممرض على المقعد المتحرك بالممر الضيق, لمح ما لم يستطع تفسيره فى أول الأمر. التقط أحدهم مهيب الطلعة , وقور الملامح, يطل برأسه من خلال فراغ إحدى الأبواب المواربة والكثيرة والمطلة على الممر الضيق.

بقى صامتا على صورته حتى اضطر الى أن يقلص عضلات وجهه على هيئة الابتسام. وكيف لا يفعل وقد انفلت الوقور المهيب من برواز باب الغرفة , تقدم نحوه..سار بخطوات ثابتة , اقترب منه , ابتسم, ربت على كتفه, قال: "مساء الخير ..كيف حالك؟"

تعثر ذهنه , فقد القدرة على تفسير سلوك الطبيب..هل الشفقة من جراء ما يعلم, وهو ما لا يعلمه كمريض.. أم هو قدر من المواساة وبث الثقة فى مريض مضطرب. فلما أنهى الطبيب الوقور مهمته عاد واختفى خلف الباب المواربة ثانية. سأل المريض رأسه: لماذا أجد دوما تفسيرين لكل ما أسمع وأرى؟!..ما كنت كذلك!!"

... ...

قدره.. اعتياد الألم, وفى كل مرة يبدو كما الأنثى التى تلد للمرة الأولى أو حتى العاشرة, تشكو من ألم الوضع, وبعد الولادة تنسى أفاعيل الألم فيها!

سعد مره لأنه اكتشف حقيقة علمية فى الألم , اكتشفها على نفسه, يوم رفض طبيب الأسنان إعطائه ما يخفف عنه, ورفض أن يخلع الضرس المسوس. علل الطبيب رفضه, بأن الألم يبقى ويزيد حتى درجة يفقد فيها الإنسان الإحساس بوخزاته . وهو ما تحقق. منذ ذلك اليوم أعلن المريض شعاره الشهير عندما يشكو أحدهم من الألم:" سوف يتعب الألم ويذهب".

... ...

..أعلن مسئول فى وزارة الثقافة , أن كل ما قيل حول منتج أوبرا عايدة مجرد إشاعات (ويؤكد أن احتمال هروبه غير وارد).

.. أعلن مسئول آمني أمريكى كبير أن الضحية العاشرة للسفاح لم يمت , وان كانت إصابته خطيرة (ويؤكد احتمال أن يكون السفاح المجرم من الإرهابيين العرب أو المسلمين).

.. بوش يقول أن ضرب العراق والتخلص من نظام حكم سفاح العراق الذى قتل شعبه وجيرانه قريبا جدا (ويؤكد احتمال أن تكون الضربة الأولى بعد قرار مجلس الأمن أو بدونه).

القى الرجل بالجريدة, شعر بالاختناق , يرغب فى التنفس العميق , وكأن هواء الغرفة أقل من احتياجه . سدد نظرة الى النافذة, سألته زوجته إن كان يرغب فى فتح النافذة, ابتسم لها على أمل أن يشعرها بالطمأنينة وعلى احتمال محو ما فهمته من نظرته الصامتة.

... ...

أحد الزوار اقترب من أذنه فور أن قبله على جبهته , همس قائلا: "إن الألم وهم صنعه عقل الإنسان وحده".

بدت الدهشة على وجه الراقد مستسلما , لم يعقب, وصنع بسمة مشجعة لأن يتابع صاحب اللحية البيضاء . وان كانت لحية فنية وليست صوفية.. إلا أنها أكسبته وقارا, وأحاطته بالأسئلة من كل أصدقائه وزملائه القدامى فى مجالى الصحافة والأدب.

تابع "علام" :" من يعتقد أن قوة الاحتمال تتوقف على قوة الإيمان أى قوة إيمان المرء..فهو على خطأ"

سأله المريض وقد شعر بالاستفزاز: "كيف ؟ هل تعنى أنها تتوقف على العقل؟"

تابع صاحب اللحية الشهباء:" وأيضا لا تتوقف على قوة الفكرة فى العقل..وان استندوا على ظاهرة رجال السيخ أو السائرون فوق جمرات النار ."

أشاح المريض برأس, لم يشعر برغبته فى الجدل, ولا فى وضع الاحتمالات والجرى خلفها, مل اللعبة .

فهم الصديق, تابع وحده: "الأفضل هو الانصهار بين حدى البعد الإيماني والفكر البشرى..فإذا كان الألم يواجهنا من واقع الحياة اليومية أو من داخل أحشائنا, فهو قدر من أقدار اللّه, لذا فالعمل على مواجهته واحتمال تحطيم الألم هو قدر أيضا."

معذرة يا سيد السقوط

هل كان يطير عندما خال نفسه يسقط؟.. شعر وكأنه يمشى على سحابة متحركة, فتلاشت فجأة!!

تمنى لو أصبح حبة لقاح تحملها الريح الى حيث تشاء؟.. أينما تسقط سوف تبقى "حبة لقاح", قادرة على الإخصاب لو صادفها "تويج" زهرة أو لم يصادف.

كان موقنا من قدرة خفية لا يدريها فى نفسه من قبل. أن يتحمل الجوع والعطش, وان لم تطاوعه أمعائه.. وإلا لماذا يشم روائح طشة تقلية الملوخية , وشواء اللحم الضأني. ولماذا يسمع صوت هرس العيش الناشف , وفسخ الطيور المحمرة؟ و بما يبرر رؤيته لألوان الخضراوات والفاكهة على غير مسمى ألوانها.. أحمر الطماطم غير الأحمر, أخضر الكوسة غير الأخضر1

ثم لماذا تفرغ لمشاجرة زوجته لأن تأكل ولا تنشغل بشيء فور إحضار صينية الطعام..؟ فضحكت فى ذكاء قائلة:

" لا تقلق سوف آكل لى ولك!!"

... ...

كثيرا ما كان يسأل رأسه: لماذا هم هاهنا حول سريره, بينما هو هناك..مع زملاء الحصار فى زمن الحرب البعيد؟؟

غلبته لحظة اعتراف, فتذكر واقعة نقل المصابين من وحدته الى مستشفى السويس العسكرى. فى اليوم الخامس من الحصار, قرر قائد المستشفى الميدانى الانسحاب, بعد إصلاح إحدى سيارات "الزل" لنقل الأحياء من نزلاء المستشفى الميدانى. زاد العدو من استطلاعاته , وهو ما فسره البعض باقتراب ميعاد اقتحامهم لموقع الوحدة.

منذ الثانية عشرة حتى الرابعة بعد الظهر, نفذ مهمة حمل المصابين من داخل الدشم الى السيارة. ظنوا أنهم أسوأ حالا من أفراد الوحدة, وتحمل عبء حملهم و اعتلاء السيارة. تكدست الأجساد حتى اتسعت السيارة لحمل الخمسين مصابا!!

عملوا جميعا فى صمت وهدؤ , حتى جاء الشيطان الطائر.. طائرة على ارتفاع منخفض تزأر..لا يدرى إن كانت للعدو أو من طائرتنا .. تقترب , فيعلو الزئير اكثر, وقبل أن تتجاوز موقع الوحدة , والسيارة المكدسة بالأجساد المنهكة.. كانت جملة المصابين على الأرض .. يزحفون!

خلع خوذته, وضعها تحت عجزيه وجلس صامتا. استطاع أن يفسر المشهد,هؤلاء الجنود ارتبط صوت الطائرة معهم بصوت الانفجارات والآهات والموت.. فسعوا للنجاة.

حاول أن يتماسك, وقف مستجمعا قواه.. على الرغم من الرضعة الهزيلة التى يتناولها بعد الحصار, ما عادت وجبة ساخنة, فقط قطع من البسكويت الخشن الصلب المغموس فى كوب من اللبن البودرة غير الذائبة فى بعض من محتوى زجاجات محلول الجلوكوز. قال:"من منكم يستطيع اعتلاء السيارة وحده يفعل..لن أحتمل معاودة حملكم ثانية".

تذكر أحد المصابين تعلق به, يطلب منه زمزميته المعلقة فى قايش بنطاله.. فتخابث وافتعل الغفلة , تركه وذهب بعيدا.

على غير توقع صاح فى زوجته:

"افتحي جهاز التكييف يا عزة..أشعر بالاختناق".

" مفتوح على أعلى درجة!"

ولم تشأ أن تزيد, وان بقيت محدقة بوجوه فى صمت. اقتربت من عينيه, سألته دون أن تنطق, فأجاب: " التبس على , قلت فى نفسى..يحتمل أن يكون الجهاز مغلقا!!"

... ...

رتابة الأيام والليالى جعلته يعجز عن حساب عددها. تلك الرتابة التى جعلت عامل المصعد فى انتظار الزوجة كل صباح, للقيام بمهام اليوم الجديد..شراء الجريدة وبعض الكتب التى تظن أنها تليق باهتمامات زوجها. ربما تسعى لأن تجذبه الى دائرة يحبها بعيدا عن الألم, لم تكن تعلم أنها بذلك تشجعه على السقوط أكثر فى دائرة ألم جديدة .

الرتابة تلك جعلت انتظار الزائرين من مهام العمل اليومية للزوجة, لعلها بذلك تخرج من دائرة ألم ملاحقة زوجها وحدهما , فلا تلحظ ملامح انهياره لحظة فلحظة.

بعض الزوار بدا معذبا بتلك الزيارة, ومع ذلك يعاودها, كما الفراشة التى تنجذب الى نور النار فتسقط فى لهيبها.. منهم من لم يخف دمعاته, وفضل الاكتفاء بالاتصال التليفونى.. ومنهم من لم يره فى فترات الصحوة, جاء لأن فى زيارة المريض ثواب لا يتركه مؤمن صادق الإيمان.

أما أصدقاء القمر من الزوار, فقد عرفهم للمرة الأولى وان كان منهم أصدقاء عمره!..يدخلون الغرفة فى صمت, يجلسون على أقرب مقعد, يمضون الوقت دون كلمة واحدة, يختمون صلاتهم, ويذهبون.. كأنهم يقولون: يا شمس أوجعنا, خبيئه أنت خلف العيون والألسن" .. ولا يدرون أن الخبيث المسجى على سريره, قرأ كلمات كتابهم كلها!

... ...

واتته صحف قديمة, تمنى ألا يطالعها ثانية , فرضت وجودها عنوة. طالع ذاك الذى يحتفظ بوظائف شتى, لا يتحملها بشر..أشاح بوجهه..قرأ عنوة:

.. القبض على رئيس البورصة وبنك الائتمان الزراعى ووكيل وزارة الزراعة, وثلاثين وظيفة قيادية أخرى.

أقسم لنفسه أن السير فوق الماء أهون مما يقرأ عنوة, عن ذاك القاتل بلا هدف إلا القتل..قرأ:

.. طالب مفصول من الدراسة بأمريكا, اقتحم مدرسة للأطفال, وأطلق النار عشوائيا على التلاميذ الصغار.

أما وقد انتابته رعدة لا يدرى سببها, القى الجريدة التى واتته : "بوش" يعلن أمام الصحفيين وكاميرات المصورين , كان سائرا ولم يتوقف لشرح وجهة نظره يقول:"إنها حرب صليبية جديدة .. ما حدث لن يمر على الإرهابيين وأعوانهم ومن يأويهم فى بلاده".

ربما نسى أنه أول من أوى أمثال هؤلاء؟!.. فلما اقتربت زوجته تسأله إن كان يريد شيئا منها, أسقط الجريدة, كل الجرائد عن رأسه.

... ...

بدا وكأنه سقط فى هوة النوم اللذيذ, ولم ينتبه لخطوات الطبيب المعالج. قال الطبيب كلاما كثيرا بطريقته الواثقة المطمئنة .. ثم خرج حتى دون أن يغوص بأصابعه فى بطن المستكين أمامه .

أقسم لزوجته أنه لم ينم, كان يدبر أمرا فى رأسه..لم تفهم ولم تشأ أن تسأل. لكنه علق بعد فترة من غروب الرجل عن وجهه :

" لم أكن على ما يرام حتما.. كنت أفكر فى قصة أكتبها.. أود لو أستطيع"

معذرة يا سيد اللذة

إليه انساب درب اللذة فانتشى, لم يصمت كعادته كلما قدمت المرضة التى يجهل اسمها. أول ما جذبه فيها صوتها الذي يشى بحنية في قلبها تكفى العالم كله!. وربما بسبب "المجال المغنطيسي", أو"الأورا", أو "المغناطيسية ", أو"الكهربية الحيوية", أو"اللهب الروحاني", أو"الإحساس الطليق", "أشعة الحياة".. أيا ما يكون الاسم, يعرفونه منذ قديم الزمان: ذلك السيال المنطلق من أحدهم الى آخر حاملا فكرة أو رغبة من العقل الواعي أو الباطني. رسموه على هيئة مجال إشعاعي حول المرء , بيضاوي الشكل من الرأس حتى القدمين.

انتهت من وخزات الإبر, افتعل غضبة بسبب ذاك المرض الصامت, وجده موضوعا مشتركا مناسبا فى حضرة الزوجة. فوجئ أن شاركته اللعنات وزادت!. لم تعد في عجلة من أمرها كعادتها في مرات سابقة.

اعتذر لزوجته بعينيه صامتا عن طول فترة تجاهلها, فوجئ أن سمعها تقول للممرضة:لم أجده مستعدا للحديث مع أحد, كما أراه معك, اجلسي".. جذبت المقعد الوثير المكسو بالجلد الأبيض..وكانت صادقة الى حد الإصرار. نفذت صاحبة هالة السيال الجميل, ثم انشغلت طويلا بارتشاح دموي في عضده, تتحسسه وتتفحصه. ولم تخرج من الغرفة قبل أن مسحت عنه ببلسم يدها وعينيها السوداوتين وبالمرهم.

لم يشأ أن ينظر الى عيني زوجته, أغمضهما, شرد قليلا..قال فى نفسه:"أقسم أن مشاعر اللذة والألم متلازمان, بل وينشط أحدهما الآخر..كلاهما خبرة حسية وشعورية..أقسم أنك صادق يا صاحب كتاب "روضة المحبين", قلت أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان..وأن اللذة والألم ينشأن عن إدراك الملائم والمنافي, وأن الإدراك سبب لهما.

... ...

مثلما أمضى بوذا سبعة أيام عار مع جلسته القرفصاء تحت شجرة التوت, وصبر حتى تلاشت الأعاصير والأمطار وصفا الجو.. فعرف سر الألم واللذة. انقضت الأيام السبعة الأولى له فى المستشفى. بدت له وكأنها زمن الرحلة معهما, ونفرت عروق رأسه بكل ما قرأ وسمع وعاش!

لم يختف الألم , نعم..لكنه أقل وطأة, بدأ الألم شديدا, شعر وكأن بطنه جوفاء, ثم أصبح أقل وطأة فبدا ألما باردا لشعوره برغبته فى الدفء, ثم هان قليلا مع الوخز بالمسكنات والمحاليل فأصبح ألما تشنجيا, موصولا بمغص, ومازال على حال الألم الثقيل.. يأمل لو يهون!

تعلق بشفتي الطبيب, صاحب السيال الصوفي واللحية المهذبة بامتداد الشارب حتى أسفل الذقن, وقد سأله حالا: "أى خطأ ارتكبته حتى تلبسني الألم يا دكتور..بحرمانى من الطعام والشراب, وبوخزاته, وبشعورى بالعجز ؟!!"

هانت بسمة مطمئنة من الطبيب الصوفي, وقال:" لم تخطىء ولا أبويك..فقط لنرى فيك, ولترى في نفسك ..أعمال اللّه وارادته"

أزاح المريض حديثه الى ما يريد, لعله يطمئن قليلا,قال:"هل أوضحت أشعة الباريوم على القولون جديدا؟" .. "ليس بالضبط, يجب أن نتابع البحث..لا تقلق"

..."زهقت!!!"

لم ينتبه لغروب الطبيب, انتبه أكثر للذة كف ناعمة حنينة يعرفها, كانت تربت على كتفه!

ود لو يرد لها ما تفعله معه, بأن يشاركها ما فى رأسه: يقسمون "اللذة والألم" الى ثلاثة أقسام .. القسم الجسمي وهو الطعام والشراب, والوهمي وهو المنصب والجاه, والعقلي وهو الجمال وأصحاب العلم والفضيلة..وقالوا أن العقلي أفضلهم ويبعث على السعادة والرضا, أما أنا فأقول: اللذة والألم الجسمي نعمة من اللّه ولا يجب أن نقلل من متعتها وجمالها..هاأنذا محروما منها وأشعر بالحزن

.. بعد فترة صمت تابع: "وان كنت أقدر اللذة والألم العقلي".

... ...

راودته رغبة أن يعيش قسم اللذة والألم العقلى.. مضطرا!, أحد أصدقائه الأدباء اقترح عليه فكرة الانشغال عن حرمانه من الطعام والشراب بممارسة "الاسترخاء" و"التخيل" كما يفعل أهل "اليوجا". قبض على جفونه وذهب وحده.

لا يدرى لماذا تذكر واقعة "الحفرة البرميلية" . عندما أطلقوا عليه دفعة من رشاش سريع الطلقات. كان في طريقه إلى خندقه الخاص لإحضار بعض الكتب لسلامة موسى, ورواية "آنا كارنينا" لتولستوى . هان عليه الرحيل بأوامر من قائد المستشفى الميدانى بعد اشتداد الحصار, ولم يهن أن يترك الكتب التى يعشقها.

لم يفكر طويلا فور إحساسه بالخطر, رشق جسده فى الحفرة القريبة, فوجئ بسقوطه فوق كتف أحدهم, سمع صوتا مبحوحا شحيحا:" ماتخافش يا أخويا..ما تخافش يا خويا"

استسلم لذراعى الجندى تجذبانه الى أسفل , وبكل طاقته حك هو جدار الحفرة بكتفيه وعجزية, فالحفرة لا تكفى إلا لأحدهما بالكاد. أخيرا نجحا, التصقا إلا من وجهيهما, فلما حلق الى وجه صاحب الصوت الشحيح الذى يدعوه بعدم الخوف, عرف كيف يكون للخوف وجه وملامح وقد كسته الأتربة؟

تابع: "حاولوا قتلى قبلك, لا تخرج من هنا, أنا هنا منذ الصباح, قادم من كتيبة النقل المجاورة, تركوا سيناء كلها, واجدعنوا على الوحدات الإدارية غرب القناة". فشل الرقيب الطبى فى إقناعه بالخروج من الحفرة والاحتماء بجماعة أفراد المستشفى, والتصرف معا. فشل, فتركه وحده مرشوقا فى الحفرة وخرج . عندما عاد أفراد الوحدة من جديد الى موقعهم فى شهر يناير من السنة التالية, أسرع وحده الى الحفرة..لم يجد الجندي الذى احتواه , لكنه لاحظ بعض العظام وجمجمة 11

بدا منتبها تماما وقد أفرج جفونه , يسأل زوجته: يحتمل أن أكون قد قصرت مع الجندى؟!, لم تفهم ولم يشأ أن يبوح لها بسر سؤاله.. ولم تعقب الزوجة.

... ...

يبدو أن الزوجة فضلت أن تدير الحديث بعيدا عن موضع الألم الذي ألم بزوجها فجأة, قالت بعد أن ألقت بالجريدة بعيدا:" جددوا حبس يوسف عبد الرحمن..الموضوع جد" ..لوى شفتيه, فتابعت: "من أين واتته تلك الثقة والشجاعة ليقول:"سوف أتكلم وأقول كل شئ". راوده تساؤل لم يخطر على باله من قبل:"هل مرضى هذا بسبب التسمم من أثر المبيدات الزراعية الشديدة السامية التي استوردها؟!"

لم تعقب.

يبدو أنها فضلت الانتقال الى موضوع آخر, قالت:"متحدث رسمي مصري يعلن أن مصر ملتزمة بالشرعية الدولية لتجنب استخدام القوة..بينما يدعو "بوش" فرنسا وروسيا والصين المشاركة فى مواجهة الخطر العراقى!"

أشاح بوجهه لتتابع وحدها:"ربما من الأفضل أن نقرأ حظك اليوم ونرمى الجريدة ",

معذرة يا سيد الطعام

فضوله فاض وغلب كل شيء, اجتاز كل الحواجز, بارح حدود جسده المنهك, غاص بعيدا يبحث عن مقهى الأصدقاء في لقاء الثلاثاء الأسبوعي.. عن مكتبه الذي يقضى الساعات الى جواره, ربما أكثر مما يمض بجوار زوجته.. عن أبواب المقاهي والسينمات وقاعات الندوات.. عن بحر الإسكندرية الذي جاوره طوال أربع سنوات مضت.

فضوله اجتاز كل الحدود ليبحث عن طبق فول بالليمون والبصل وزيت الزيتون.. يبحث عن فنجان قهوة الصباح والمساء.. يبحث عن سيجارة يلتهمها.. يبحث عن روائح الشواء والقلى وحتى سلق اللحوم والأطعمة.

... ...

قال الإمام الرازى عن "البصل":

"إذا خلل البصل قلت حرافته, وقوى المعدة.. والبصل المخلل فاتق للشهوة"...

"نصف كوب من عصير البصل مع كوب عسل , يغلى حتى يتبخر البصل وينعدم رائحته. تؤخذ جرعة منه بعد كل وجبة.. يستخدم للقوة التناسلية"

"أكل البصل مشويا بالفستق مع طلع النخل والعسل..يقوى الباءة" ...

"تطبخ شوربة البصل بنخاع العظام, تشرب كالمرق فى الغداء يوميا, يقلل الإحساس بأى ألم"

وقال ابن البيطار عن البصل:

"البصل فاتق لشهوة الطعام, ملطف ,معطش, ملين للبطن, إذا طبخ كان أشد إدرارا للبول ويزيد الباءة إن أكل البصل مسلوقا"...

..وجدوا فى البصل فيتامينات وهرمونات جنسية مقوية للرجال. مادة "الكلوكنين" فيه تعمل عمل "الأنسولين" وتنظم السكر فى الدم. بالإضافة الى "الكبريت" ومركباته التى تسبب ادماع العين, فضلا عن وجود بعض الخمائر والأنزيمات المنشطة للغدد.

قديما قال "هيرودوت":"البصل هو الكرة الذهبية, عجبت للمصريين كيف يمرضون وعندهم البصل والليمون؟1"

وعن "الحبة السوداء" أو "حبة البركة" حدث ولا حرج.. وصفوها للذة وزيادة الشهوة ومواجهة الآلام.

"مغلى الحبة السوداء واستعملها مضمضة أو غرغرة يقلل الآم الأسنان واللثة والحنجرة"...
"حفنة من الحبة السوداء مع سبع بيضات يوميا لمدة شهر, ويمكن إضافة ثلاثة فصوص ثوم بعدها.. يزيد الشهوة ويقلل الدهون فى الجسم."...
"طحن الحبة السوداء مع "الحلبة" قدر كوب , ثم يضاف قدر من "العنبر" المحلل, يخلط فى إناء به عسل نحل..وتؤكل كما المربى بخبز قمح يقوى الباءة" ...
وفى كل الأحوال عند الضرورة على المرء اتباع الآداب التالية: دخول الحمام لقضاء الحاجة أولا.. يدعو اللّه قائلا:"اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنى".

وعن الثوم .. "يهرس الثوم ويسوى فى زيت الزيتون على نار هادئة حتى يصفر لونه, يعبأ فى قارورة .. عند الضرورة يدهن به جذر الاحليل (العانة) بحركة دائرية, ولا يغسل قبل ساعة..فيزيد الباءة" ...
" نصف فص من الثوم على مكان الألم فى الفم , يرفع ألم الأسنان , يوضع فى صيوان الأذن جهة الفك المؤلم, يرفع ألمه."...
.. الثوم غنى بالفوسفور والمواد الكبريتية والكالسيوم, محرض للشهية, ويحرك جدار المعدة. يحول دون تكون الدهون..فيه شفاء من سبعين داء. وللتخلص من رائحته تؤكل تفاحة بعده أو ورق النعناع أو مستحلب القرنفل.

وقال "رفق الدين البغدادى" فى كتابه"الطب فى الكتاب والسنة" عن العسل:
"ابدأ يومك بعسل النحل, فهو ما قال فيه القران الكريم:"يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس" (النحل- 69).

... ...

غازلته الأطعمة واختزلت الى روائح غامضة تشاغله عن غير قصد. تواتيه رائحة البصل كلما ضاقت به السبل!. منذ يوم أن أخبرته أمه أنه ولد صامتا, لم يبك كما المواليد, ولم يبك إلا بعد أن دسوا بصلة فى أنفه.
الرائحة الكريهة لأنفاس زميلة العمل لم يبررها إلا بعد أن علم أنها تتناول الثوم يوميا منذ عشرات السنين , فطلب منها أن تكف عن فعلتها..الأن يشعر بالندم على فعلته!
الرائحة الهينة الملساء لحبيبته التى كانت, لم تبرح مناخيره . قادر هو على استحضارها وقتما شاء. فلما حضرت سألها: لماذا تموتين قبل الأوان؟! ولأنها قليلة الكلام مطمئنة النفس..ابتسمت صامتة وافتعلت انشغالها بشعرها الكستنائى الناعم, ثم ذهبت ولم تذهب رائحتها.

أما رائحة أمه التى ظن أنه نسيها, واتته , كان قد حفظها خلال فترة غيبوبتها الأخيرة . ما كانت تتقبل علاجا إلا بعد أن يجلس الى جوارها , يملأ أنفه برائحة الأمونيا المنبعثة مع أنفاسها- من جراء الفشل الكلوى الذى نال منها- يسألها أن تقبل أوامر الأطباء, فتمد ذراعها وسط دهشة الجميع مستسلمة لشكشكات غير راغبة فيها.

فلما جاءته رائحة جده, وهو تحت إبطه يحميه بالمعطف الأسود الصوف, فى طريقهما الى المدرسة الابتدائية , أيام الشتاء الممطرة .. ظن أن الروائح كلها ما خلقت إلا لحمايته كلما ضاقت به الدنيا.. فتمنى لو يبكى..لم يبك!

... ...

قال أحد الزوار أن روائح ومذاق الفاكهة والخضراوات ما عادت كما كانت, باتت مسخه حتى "الخيار" أصبح شائخا بلا طعم. فعقب أحدهم بأن أهل العراق يصنعون الخبز من نوى البلح بعد الحصار.. وساد الصمت حتى تابع ثالثهم:"بينما أمريكا تلقى الحبوب فى المحيط بما يكفى سكان أفريقيا شهورا"!!

علق الهامد على سريره:"الأسمدة الصناعية والمبيدات مع الجشع والجنون.. السبب فيما نشعر به من مرارة فى الخلق والقلب والعقل أيضا"!

... ...

خلال زيارة تالية قال لهم: "لكن الألم نعمة يا جماعة!!" ..رفع رأسه عن الوسادة متحديا صمتهم, وتابع: فى زمن الحرب, ومع دخول الدبابات المعركة, تلك التى نقلوها فى جسر جوى من أمريكا حتى العريش..زاد عدد المصابين, ولم تعد الأسرة تكفى, حتى امتلأت العنابر والممرات الموصلة نحو المدخل. فى التاسعة مساء وقد ظننت أننى انتهيت من مهمتى , اكتشفت أحدهم صامتا فوق المحفة ..لا يتألم!, سألته عما به, أشار الى بطنه, رفعت الرباط الصوفى عن بطنه, وجدتها مبقورة, والأمعاء حولها!".. صاح يدعو كبير الجراحين, عنفه لترك الرجل طوال تلك المدة, برر بقوله :"لم يكن يتألم..أو على الأقل لم يقل ..آه!!".

اضطر الطبيب للضحك, ومنذ ذلك اليوم البعيد ما عاد يعبا بأصحاب الصوت المرتفع, القادرين على التألم..اعتنى أكثر بمن لا يصرخ ولا يقول "آه"!!

معذرة يا سيد الليل

الليل الذى يبدأ ثقيلا يجئ غواية, يدعوه الى المنفى , الى الزمن الغائر فى شعر رأسه وقد بات مبرقشا, وفى شقوق هينة حول عينيه وزاويتى فمه. فقط لأنه عاش فى هذا الزمان عمرا, مرا .. لم يبق منه سوى فحيح النهاية.

... ...

ما كان يدرى أن حالة "الفواق" أو "الزغطه" التى تلبسته مثيرة للقلق..كلما اتصل به ابن عمته الطبيب من المدينة البعيدة يسأله عنها, ولا ينتظر ردا, تأتيه الإجابة جليه , فالمسجى لا يستطيع متابعة جملة واحدة غير ممزقة بالزغطة.

ما استطاع كبح جماحها, افترسته وهو فى طريقه الى المستشفى..عفوا تتقلص أحشائه ويعلو صدره قليلا..مع صوت شهقة خبيثة. عامل مصعد المستشفى, الصبى العفريت انتابته ضحكة طويلة , لم يخفها مع نظرته الدهشة.

كان إيقاعها مع خطواته بين ردهات الدور التاسع..أمرا مضجرا. بات يتبعها لحظة بلحظة وكأنها المرض. ما كانت كذلك, بل لعبة يلعبها مع أصدقائه الصغار, حتى عندما ينصحه نبيها منهم بشرب جرعة ماء..يرفض, سعيدا بإيقاعها المنتظم, وربما لأنها شدت انتباه الجميع من حوله!

... ...

فى الليل دخل المستشفى, وهو لا يدرى سر قلق الطبيب الذى استقبله!

فى الليل شاهد تلك الفتاة النضرة الممتلئة ثقة وحيوية مصادفة, وما كان يدرى أنها قدره وهو قدرها..فتزوجها!

فى الليل قادته الطائرة للمرة الأولى الى البلاد البعيدة, وفيه تنقل بين الفنادق هناك..

فى الليل أدى مناسك العمرة, فلا يطيق أحدهم أداء مناسكها مع حرارة شهر أغسطس نهارا..

فى الليل عاش الخنادق والخيام أيام الحرب التى تراوده عن نفسها دوما!

فى الليل ماتت أمه ثم حبيبته التى لم يلق النظرة الأخيرة لأنه رفض اللقاء الأخير..ثم مات أباه, وهو لا يدرى لماذا يموت الناس ليلا؟؟!

فى الليل كثيرا ما يشعر بالجوع..للطعام والضحك والكتابة واللذة, جعله المشتهى..أكثر كثيرا من نهار أيامه !

وكان يونس فى بطن الحوت , يعيش ليلا دائما!
اصبح الليل عنده منفى كل شئ.. ما عاد شمسا وضاءه تكشف الأسرار كلها !

... ...

تعلو أصوات الأنين من الغرفة المجاورة لغرفته, كأن صاحبها الأواه يرتل تراتيله كلها , ولا يدرى لماذا تبدو هكذا جليه ليلا؟
فى كل مرة يسأل فيها أحد طاقم التمريض الذى يقتحم عليه ليلته لرفع عبوة المحاليل واستبدالها بأخرى.. يسأل: بماذا يعانى هذا المسكين؟
يجئ الرد فى الظلمة:"خليك فى حالك!"
فيما بعد فسر الرد الجاهز بسبب الإرهاق, لكنه أيقن أنهم يسخرون منه, أو هكذا اعتقد.
ليل الغرفة 908 غير أى ليل...
كان يرى شبح المبنى الضخم من زجاج النافذة الموصدة, فيبدو كشاهد مقبرة. عرف أنه يعلو المستشفى الضخم الذى يقيم فيه,ومع ذلك تسكنه الأشباح. تملكه شركة توظيف أموال أعلنت رفضها رد أموال المودعين !
فضل ألا يرمى بصره فى الظلمة الى النافذة, ولا الانشغال بالظلال التى يراها خاطفة مسرعة, هاله أن تكون لطيور قتيلة تسقط.
لولا الإحساس بالشفقة على ما بذلته زوجته من جهد طوال اليوم, لصاح بأعلى صوته لأن تنهض من نومها لتتحدث إليه أو حتى تبقى صامتة. كانت تغط مع أنفاسها العميقة الرتيبة فى هدؤ لا يمثل قدر لهفتها واضطرابها لو همس باسمها مناديا, تبدو وكأنها ما كانت نائمة ولا حتى مع الكرى.
كانت الغرفة منسقة ونظيفة , لكنها مفتوحة السقف والجدران, مستباحة لريح الليل وهواجسه, ولضوء القمر الخبيث , ولأحذية الممرض الذى دخل حالا حاملا حقنة شرجية يقول:

"اتصل الدكتور عمرو الآن , وطلب عمل أكثر من حقنة شرجية حتى الصباح..
سوف يجرون لك منظارا على القولون فورا"

... ...

بالبكاء العنيد كان يقاوم أمه يوم رشقت مبسم الحقنة الشرجية فى مؤخرته صغيرا. بالنشاط والهمة كان يمرض أبيه يوم رشق نفس المبسم فيه قبل رحيله بناء على نصيحة الطبيب.
بالضحك الشقى كان يمزح مع أصدقائه الصغار و يهددهم بوضع الحقنة الشرجية كلها فى مؤخرتهم إن تشاجروا معه!

الآن يبدو مستسلما لرحيل الأيام التى كانت, ولمهمة المرض فى عمله.

... ...

أمضى الليل على يقين أنه ليل بخيل وان طال, راودته أشباح أمواته كلهم ..أمواته فقط. صديق طفولته الأولى الذى ذبحته سيارة مسرعة, صديقه الشهيد الذى اختارته شظية مكتوب عليها اسمه, بينما كانا متجاورين.. وأناس غيرهما يتجددون كل ليله . فقال فى نفسه..ربما بسبب المبيدات السامة أو بسبب الحرب على العراق التى لم تبدأ بعد!

... ...

مع شقشقت الفجر, انتهت مهمة المرض وهو يردد فى نفسه: أنا لم أزل طفلا, يجب أن أخبئ أحزاني تحت جلدى !!

معذرة يا سيد البشرى

بين ارتياد الألم واللذة وانتظار الرضى, كابد الخطو. زاده الشوق اشتياقا.. للحب الذى يعرفه العاشقون, للتحمل الذى أثبت ضعف جسده, للتأمل الذى جعله يرى ما خلف جدران الغرفة,وما تحت جلده وجمجمته, بل ويكشف ما فى نفسه المسجونة فى جسده.

ما عاد يملك غير الرجاء...

... ...

فى صباح اليوم الثانى عشر, أصبح كل شئ حوله غير محتمل. المرتبة التى ينام عليها غاصت, الكوميدين امتلأت بأشياء تخصه ولا تخصه, الخراطيم الموصوله بذراعه وبطنه, السكون الممزق بآهات أحدهم فى الغرفة المجاورة, بياض لون الحوائط وملابس الممرضين.

كل شئ من حوله هادئ إلا رأسه, نفر جسده فجأة بعصبية , رسم جسده زاوية قائمة . فأدرك فى تلك اللحظة الجهنمية أنه كان شغوفا بجسده الى حد الجنون.. ولم يسأل نفسه: لماذا؟؟

لماذا كل شئ..أن يكون جسده طهورا ومدنسا, وربما مقدسا أيضا .. يراه أزليا وهو موقن بالزوال؟! . كان جسده كل ما يملك فى هذا الكون.. يملكه بحق, ومساحة وجوده المتحقق.

لا ينسى يوم ضبطته أمه فى ركن الغرفة منطويا على نفسه, يكتشف سيف الذكورة فيه. وان ابتسمت لم ينس قدر الورطة , لم يستطع تفسير وقفته نصف عار أمام المرآة, حتى الآن مازال يشعر بالورطة!

حرضه جسده على اكتشاف سر القبلة والرائحة واللمسة وأطراف اللذة كلها, جعله فى مواجهة المهالك, ويرى فى الألم لحظة قاسية ومقدسة معا!

جسده المحرض جعله منتبها حتى الآن لأن يتذكر النهاية, كل النهايات حتى سديم الأكوان البعيدة.

ما عاد يدرى.. هل يعيش الآن لحظة انتظار النهاية, لأنه أدرك حدود جسده وإمكاناته؟ أم لحظة فتوح لم يقرأ عنها من قبل.. يعيشها ويقبض عليها.

... ...

فور أن اقتحمه "محمود" كعادته, سأله إن كان معه كتاب الكلمات المتقاطعة الذي يحمله دوما فى بنطاله. وقد أخبره عن أسرار تلك اللعبة..كيف أن جريدة الأهرام تكرر

لعبتها ظنا منها أن أمثال محمود غير منتبهين؟ وأن الجرائد الأخرى أكثر حرصا وتطويرا لها. حدثه طويلا عنها وقد شاعت بعد معارك 67 ولا يدرى لماذا؟

كان دوما يرفض اللعبة ظنا منه أنها لا تكسب المرء ثقافة حقيقية, وتأكد ظنه بمهارة المرض فى حلها خلال دقائق , والسر فى ذلك تكرار المعلومات. الآن يسعى لأن يمارس اللعبة, ولا يدرى للبحث عن مثير آخر غير مرضه أم رغبة منه فى التخلص من جبرية الحياة التى يعيشها منذ أن اعتلى سريره هذا؟!

لم يهتم محمود بما طلبه منه المريض, جالس سريره. اهتم أكثر بما لاحظه فورا..سقوط خرطوم الرايل!!

انتبهت الزوجة وتابعت أوامر الدكتور عمرو فورا.. أن يتناول المريض فنجانين أو ثلاثة من الينسون أو النعناع, ولاحقت قسم التغذية لتنفيذ المطلوب . فلما شربها كلها ولم يتقيأ ..كانت البشرى التى زفتها لكل زوار النهار وأول الليل!

... ...

أسرع إليه الطبيب..فحصه مليا, وكرر أسئلته القديمة كلها.. لوى شفتيه وخرج صامتا. تابعت الزوجة "الرقى" كعادتها وشقيقتاه كل صباح ومساء. وضعت يدها على بطنه (موضع الألم) تمتمت بكلمات لم تبين له . هذا الصباح سألها:"ماذا ترتلين؟" ردت وهى تتابع مهمتها بهمة واخلاص: "بسم اللّه الرحمن الرحيم ثلاث مرات..ثم أقول أعوذ باللّه وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات, وأتابع الصمدية والمعوذتين قدر ما أستطيع".

... ...

لم تكن المرة الأخيرة يعاود فيها التقاط صور جديدة بالأشعة على البطن (نائم-واقف), مازال الطبيب يبحث عن شئ فى رأسه.

صادق أغلب العاملين بقسم الأشعة, إلا ذاك الطبيب صاحب الطلعة الوقورة الذى مازال يتصيده.. فى كل مرة يطل من برواز الباب الموارب, ثم يخرج, ويتقدم نحوه فى هدؤ..يربت على كتفه ويرمى السلام. إلا تلك المرة, سأله: "رجعت الينسون, تقيأت؟!". فلما سمع كلمات النفى وقد استرسل المريض فى وصف ما تناوله..ابتسم بسمة عريضة, ربت على كتفه للمرة الثانية, ثم ذهب صامتا. كانت بسمته هذه المرة وبعد أربعة عشر يوما غير كل المرات السابقة.

... ...

عاد وأخبر زوجته بما كان منذ قليل, ابتسمت قائلة: "خيرا". لم تنتظر لتسمع منه أكثر, لاحقته ضاحكة, ثم صاحت قائلة:" نائب الكنيست الإسرائيلي "محمد بركه" طردوه لأنه قال أن الفلسطينيين ليسوا نعاجا فى مزرعة "شارون". ابتسم هو أيضا!

سألته إن كان يريد منها أمرا, لم يعلق, تابعت وحدها وهى تقلب صفحة الجريدة قائلة:" قبضوا على اثنين من الزنوج الأمريكان, يحتمل أنهما وراء القتل فى واشنطون. الأول شابا فى العشرين اسمه"روهان مالفو" مع زوج أمه وانتبه جيدا لاسمه "جون..دانيال..محمد"!!

ولم تسمع تعليقا, تابعت بأنهم جددوا حبس "يوسف عبد الرحمن" أربعين يوما. ثم شغلهما "محمود" أكثر. جاء وبين أصابعه ورقة كراسة مكتوب عليها .."محمود حماد.. (نجم التليفزيون والسينما مستقبلا) مع أرقام تليفونات المستشفى!

"هل تعنى؟

"بل ظهرت على شاشة التليفزيون, وكل من فى المستشفى يعرفون, ويعرفون أن مثلى الأعلى هو الفنان شعبان عبد الرحيم"

"....."

" تسمعنى؟"

"أسمعك"

كان صوته جميلا بحق, أو هكذا استقبلته أذن المريض الذى رفض العودة الى السرير وبقى جالسا على المقعد الجلدى الأبيض.

... ...

شد انتباهه للمرة الأولى, ذاك الشيف صاحب التوك أمامه على شاشة التلفاز. يرفض تلك البرامج مدعيا بأنها تسخر من عقول وحافظة نقود المشاهدين.. كان يعتقد ذلك. الآن طلب ورقة وقلما, كتب طريقة إعداد طبقا للحلوى لم يذقه من قبل.

بودرة كريم شانتيه, مع جيليه, وعصير فراولة ..معا فى الخلاط الكهربائى. يصب الخليط فى كؤوس زجاجية, يوضع على سطح كل كأس حبات من الفراولة والكريز, وشرائح من الكيوى والشكولاته..ثم توضع فى الثلاجة لمدة ساعة!

فلما انتهى من انهماكه, سألته زوجته عن "البصارة" التى زرعها خياله من قبل..ابتسم وأخبرها بأنها ستصنعها وهى الى جواره فى المطبخ فور عودتهما!!. لم يشأ أن يخبرها بأنه بدأ يعانى من الجوع أكثر كثيرا من الأيام الأربعة عشر الماضية.. وأن ما تناوله من ينسون ونعناع وجيلى لم يجيب على أسئلة أمعائه الخاوية.

... ...

لم تتنازل شقيقتاه وزوجته عن ممارسة "الرقى" فوق موطن ألمه الذى قل كثيرا. فى كل مرة..يغلق عينيه, يغمره إحساس غريب بالتلاشى والاستسلام. لا ينتبه بما يرتلونه, ومع ذلك فقد القدرة على التخيل , كم حاول اصطياد ذلك الطائر الأسطوري الذي يحمله

عنوة الى غرفة نومه, مكتبه, أصدقائه الأدباء, بحر الإسكندرية..الى الدنيا الذي يتمنى أن يعرفها, كأنه ما عرفها من قبل.

فلما رفعت التى تمارس مهامها ..يدها, لم يفرج جفونه , ربما لاغرائها أن تتابع, وربما لعدم رغبته فى رؤية الغرفة.

صاحوا باسمه لاستقبال الدكتور عمرو الذى وجده مبتسما مطمئنا, وما أن هم لسؤاله..اعترض الطبيب: "لا تسألنى عن سبب الحالة التى انتابتك لأسبوعين, ولا كيف شفيت منها.. أظن أنها نوع من الابتلاء؟!"

استسلم الذى رفض البقاء نائما على السرير, مفضلا الحديث مع الطبيب من فوق المقعد الأبيض.. ولم يسأل حتى انقضت فترة.

تابع الطبيب: "ربما بسبب ما رأيت الآن,ممارسة الرقى فوق موطن الألم ,هون اللّه عليك..

9

وأزاح السبب عنك....

لتزداد حيرتى فى حالتك ...

ولتطمئن أنت...

وهذا يكفينى ويكفيك .. الآن على الأقل"

فابتسم الذى كان مريضا, وقال: "وأنا أيضا يكفيني.. ولكن الى الأبد"

السيرة الذاتية للكاتب السيد نجم



تخرج: في كلية الطب البيطري عام 1971 – جامعة القاهرة
و كلية الآداب (قسم الفلسفة) عام 1980 – جامعة عين شمس .
-عضو اتحاد الكتاب.
-عضو نادى القصة.
-عضو مؤسس لجماعة "نصوص90" الأدبية.

الإصدارات :

- مجموعة قصص "السفر"- دار الثقافة الجديدة 1984 .
- مجموعة قصص "أوراق مقاتل قديم"- هيئة الكتاب 1988.
- رواية "أيام يوسف المنسي" – نصوص 90 عام 1990.
- مجموعة قصص "المصيدة"- هيئة الكتاب 1992.
- مجموعة قصص"لحظات في زمن التيه"- هيئة قصور الثقافة1993.
- رواية "السمان يهاجر شرقا" – هيئة الكتاب 1995.
- دراسة "الحرب:الفكرة-التجربة-الإبداع"-هيئة الكتاب 1995 .
- مجموعة قصص" عودة العجوز إلى البحر" – دار الوفاء 2000.
- رواية "العتبات الضيقة" –هيئة الكتاب 2001
- كتاب "المقاومة والأدب" –هيئة قصور الثقافة2001.
- كتاب "طفل القرن الحادي والعشرين" –دار الوفاء2003 م.

إصدارات في أدب الطفل:

- قصص "سامح يرسم الهواء" –دار المعارف
- قصص "الأسد هس و الفيل بص"- دار المعارف
- قصص "حكايات القمر"- دار الهلال

- قصص "المباراة المثيرة"- دار المعارف
- "الأمومة فى عالم الحيوان" – دار المعارف
- رواية"الأشبال على أرض الأبطال"-كتاب قطر الندى-هيئة قصور الثقافة
- قصص"روبوت سعيد جدا"- دار الهلال

النشاط الأدبي:

- عضو مؤسس لجماعة "نصوص.9" الأدبية.
- عضو اتحاد الكتاب المصريين.
- عضو نادى القصة.
- حصل على العديد من الجوائز و شهادات التقدير(منها جائزة سوزان مبارك في أدب الطفل- والمجلس الأعلى للثقافة- ومسابقة أخبار اليوم في الرواية العربية- ونوادي القصة في مصر والعالم العربي)
- حضور العديد من المؤتمرات الأدبية
- قررت وزارة التربية والتعليم اقتناء رواية "الأشبال على أرض الأبطال"- طفل.

النقد :

- رواية "أيام يوسف المنسي ضمن مضمون رسالة الدكتوراه للدكتور مصطفى الضبع..جامعة عين شمس.
- رواية "السمان يهاجر شرقا" و "الحرب:الفكرة –التجربة-الإبداع" ضمن مضمون رسالة الدكتوراه للدكتور عبد المنعم أبو زيد..جامعة القاهرة.
- رواية "السمان يهاجر شرقا", و"الحرب:الفكرة-التجربة-الإبداع" ضمن رسالة الدكتوراه للدكتورة غادة عفيفي..جامعة عين شمس.
- مجموعة قصص "عودة العجوز إلى البحر" تحليل ونقد بكتاب "النص والنص المغاير" للدكتور عبد المنعم أبو زيد.

النشر المشترك :

- ـ عدد خاص عن سلسلة "أدب الحرب"- هيئة الكتاب 1995م.
- -كتاب المقهى الثقافي – هيئة الكتاب1997 م.

- –عدد خاص عن القصة القصيرة. كتاب الجمهورية – دار التحرير 2000 م.

تحت الطبع:

- ـ رواية " الروح وما شجاها"
- دراسة " المقاومة في الأدب العربي"
- مجموعة قصص (غرفة ضيقة بلا جدران)
- "لغز الكائنات الفريدة" – أطفال – دار المعارف

–دراسة "المقاومة والحرب في الرواية العربية"

التأليف في مجال الدراما:

- –تمثيلية "نور الظلام" شبكة إذاعة البرنامج الثقافي عام 2002
- 5–تمثيلية عن قصة قصيرة بمجموعة"أوراق مقاتل قديم" بإذاعة الإسكندرية.عام 2002 م
- –مسلسل "ساعة الصفر" شبكة إذاعة البرنامج الثقافي عام 2003 م

العنوان البريدي :

21 شارع عوض فهمي- سراي القبة

رقم بريدى: 11331القاهرة – جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني:

Ab_negm@yahoo.com

Mb_negm@hotmail.com